جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة بالمنوفية

طرائق المحافظة على الموروث الحضاري للأمة في النتاج العلمي التراثي والمعاصر

الأستاذ الدكتور

محمد محمد العاصي

أستاذ بكلية أصول الدين بالمنوفية
جامعة الأزهر

طرائق المحافظة على الموروث الحضاري للأمة في النتاج العلمي التراثي والمعاصر

محمد محمد العاصي

أستاذ بكلية أصول الدين بالمنوفية جامعة الأزهر

الايميل: alasy1973@yahoo.com

ملخص البحث:

أهم النقاط العلمية التي تضمنها:

المطلب الأول: حضارة الإسلام وحضارات بني الإنسان بين المعالم والذوبان.

المطلب الثاني: استراتيجية العمران في الفكر الإسلامي.

المطلب الثالث: ابن خلدون (أبرز رموز الفكر العمراني في الإسلام).

المطلب الرابع: نحن والحضارة بين "الفعل" و "الانفعال".

الكامات المفتاحية: طرائق المحافظة، الموروث الحضاري، الأمة، النتاج العلمي، التراثي والمعاصر.

Methods of preserving the cultural heritage of the nation in the traditional and contemporary scientific production

Muhammad Muhammad Al-Assi
Professor at the Faculty of Fundamentals of Religion in Menoufia, Al-Azhar University
Email: alasy1973@yahoo.com

Abstract:

• **The most important scientific points included:**
The first requirement: the civilization of Islam and the civilizations of human beings between features and dissolution.
• **The second requirement:** urbanization strategy in Islamic thought.
• **The third requirement:** Ibn Khaldun (the most prominent symbols of urban thought in Islam).
• **The fourth requirement:** we and civilization between "action" and "emotion".

Keywords: Preservation Methods, Cultural Heritage, Nation, Scientific, Heritage and Contemporary Production.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، ورحمة الله للعالمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين، **أما بعد**،،،

فمما لا يخالج أحدا شك فيه من الناحية العلمية أن النتاج العلمي التراثي منه والمعاصر قد رسم أبعاد طريق النهوض بالأمة، وذلك بالمحافظة على الموروث الحضاري لها ... سواء أكان هذا الموروث: فكرا وتأصيلا وقولا، أم سعيا وتخطيطا وعملا: (الجانب النظري والعملي).

والحضارة الإسلامية حضارة عظيمة، امتدت عبر قرون كثيرة وفي شتى المجالات، وتركت من ورائها موروثا حضاريا عظيما يزهو به كل مسلم ويفتخر ... ومع هذا الزهو والافتخار يحمل كلا منا مسؤلية جسيمة حين يشعر أنه حارس على ثغر من ثغورها، وعليه – إن لم يضف المزيد– أن يحافظ على ما في يده من ميراث السابقين الأولين.

وعلى المسلم الحصيف أن يقرأ أحداث الماضي، ويفقه أحوال الحاضر، ويستشرف أمور المستقبل، حتى يعرف نقطة البدء ونقطة الانطلاق.

والأمر على ما قاله الدكتور/عبد الوهاب المسيري: "إن دراسة التاريخ من أنجح الطرق التي يتوصل بها الإنسان لتحديد علاقته مع الماضي، وليتعرف على هويته، وليتحرر من قبضة الحاضر، وليعرف حدود ماهو ممكن وما هو مستحيل ... ومن المدهش حقا في أمتنا، ونحن في العصر الحديث، وهي تحاول أن تنهض من كبوتها وتخرج من حيرتها ولم تتوفر – بعد – مجموعة من علمائها على كتابة تاريخ الحضارة الإنسانية بما يبرز الانجازات العربية (والإسلامية)، ويحدد علاقتها بإنجازات الآخرين ... وذلك في جهد جماعي

مكين، ويجب أن ننقل فيه – كذلك – ماكتبه العلماء الغربيون في هذا المضمار".(١)

وعلينا أن ندرك: أنه عندما تكون الأمة مالكة لتراث حضاري غني وعريق، وعندما تكون حضارتها من الحضارات التي تألقت يوما فتخطت بعطائها الحدود القومية لهذه الأمة – كما هو حال أمتنا الاسلامية – عندما يكون هذا هو حال الأمة،فمن الصعب – بل والمستحيل – عليها أن تعجز بنضالها عن تحقيق الاستقلال الحضاري والذي هو "الهوية" الخاصة بالأمة، وإن شئت قل: هو تراثها، وموروثها.

وهذا البحث الذي عنوانه: **طرائق المحافظة على الموروث الحضاري للأمة في النتاج العلمي التراثي والمعاصر.**

والذي يعد من أهم أسباب اختياره:

أنه محاولة على طريق استقراء ما رسمه الأقدمون والمعاصرون لطرائق المحافظة على موروث الأمة الحضاري، وفاء لديننا وأمتنا وقيمنا وحاضرنا ومستقبلنا.

طرق وطرائق: مما ينبغي لي أن أنوه به أن كلاهما جمع طريق، **فإن** كان المراد الطريق المعنوي، أي: المذهب والمشرب أو النوع فإنها تجمع على طرائق، كما في التنزيل العزيز: طرائق قددا.

وإن كان الطريق الحسي أي: الدرب أو الجادة أو الشارع ونحوها، فإنها تجمع على طرق وطرقات.

---

(١) **الغرب والعالم:** تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، كافين رايلي، ترجمة د. عبد الوهاب محمد المسيري، ود. هدى حجازي، مراجعة د. فؤاد زكريا، ٦/١، (عدد ٩٠/يونيو ١٩٨٥م).

وقيل: طرق جمع طريق، مذكر وطرائق جمع طريقة، مؤنث ومما سبق يتضح أن اختيار لفظة طرائق هو الاختيار المناسب إن شاء الله تعالى.

الهدف من البحث: شحذ الهمم وإيجاد روح المناقشة العلمية الجادة حول طرائق الحفاظ على الموروث الحضاري للأمة، لتبصير شبابنا بماضيهم التليد، والأخذ بيدهم نحو آفاق الإسلام الرحبة.

كما يهدف أيضا إلى إعادة النظر في ترتيب وتنظيم الأفكار الموجودة قبله بالفعل ... وبعد مستجدات معاصرة استوجبت هذا الترتيب والتنظيم كي يساهم البحث – بنتائجه إن شاء الله تعالى – في تنشيط هذه الأفكار والتذكير بأهميتها في المرحلة الراهنة.

إشكالية البحث وتساؤلاته: إذا كانت إشكالية كل بحث علمي هي مجموعة الأسئلة التي يقوم الباحث بطرحها خلال بحثه، أو ما يمكن أن ننعتها بأنها سؤال علمي يحتاج إلى معالجة ... أو هي عبارات استفهامية يسعى الباحث للإجابة عنها من خلال دراسته، فلعل هذا البحث قبل أن يجيب على أسئلة معينة وضعت له أن ينجح في وضع علامات استفهام أخرى حول قضايا حيوية لتنشأ من بعده دراسات لاحقة حول باقي أعمدة الهوية الإسلامية وما خطه يراع علمائنا الأماجد في هذا المضمار ...

وعلى أية حال: فمن أهم تساؤلات البحث ما يلي:

ما هي معالم حضارة الإسلام وحضارات بني الإنسان؟

هل توجد استراتيجية للعمران البشري في الفكر الإسلامي؟

هل ابن خلدون أبرز رموز الفكر العمراني في الإسلام؟

ما هي دلالة بناء المدن وتمصير الأمصار في الحضارة الإسلامية؟

ما موقفنا من الحضارة القائمة: هل الفعل إم الانفعال؟

ما موقف الإسلام من دعوى صدام الحضارات؟

حدود البحث: لبحثنا هذا حدود واضحة ... فقد جاء مقتصرا على ما ورد في تراثنا الإسلامي ورواد علمائنا المعاصرين داعيا إلى الحفاظ على الموروث الحضاري بما يساهم في حفظ هوية الأمة ... وذلك لإعادة بعثه من جديد كي يكون حاضرا في ذهن شباب الأمة من خلال علمائها ومفكريها.

الدراسات السابقة: مما ينبغي لي أن أنوه به أن هناك دراسات سابقة كثيرة على هذا البحث في بابه، وكلها تضع لبنة في بناء متناسق يساهم في خلق روح علمية حاضرة، وفيما كتبه رادة الفكر الإسلامي الذين رسموا طرائق كثيرة للمحافظة على الموروث الحضاري للأمة آكد مثال على ذلك.

منهج البحث: يسير بحثنا هذا وفق **المنهج التكاملي** الذي تقتضيه تلك النوعية من الدراسات بين تحليل واستنباط وتأريخ ونقد في نغم متناسق بين المناهج البحثية المختلفة وفق ما تقتضيه النقطة البحثية محل الدراسة.

خطة البحث: اقتضت طبيعته أن يكون هيكل البحث بعد هذا التقديم السريع متضمنا مايلي:

المطلب الأول: حضارة الإسلام وحضارات بني الإنسان بين المعالم والذوبان.

المطلب الثاني: استراتيجية العمران في الفكر الإسلامي.

المطلب الثالث: ابن خلدون (أبرز رموز الفكر العمراني في الإسلام)

المطلب الرابع: نحن والحضارة بين "الفعل" و "الانفعال"

ثم خاتمة بنتائج البحث، وثبت مراجعه، وملخصه، مع سيرة موجزة لباحثه.

وقد تمت المعالجة العلمية بتوفيق من الله تعالى، سائلا إياه في علاه أن يجعل ذلك في ميزان حسناتي يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا.

وكفى بربك هاديا ونصيرا

المطلب الأول

حضارة الإسلام وحضارات بني الإنسان بين المعالم والذوبان

- **مفهوم الحضارة:** قرأت تعريفات كثيرة للحضارة، أختار منها تعريفين:

الأول: أورده الدكتور/عبد الوهاب المسيري، معرفا إياها بأنها جماع ما أنتجته يد الإنسان على هذا الكوكب(١).

أما **الثاني:** فقد عرفها الدكتور/حسين مؤنس، بأنها:

ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية.(٢)

وفي رأيي: أن التعريفين اتحدا في الوجهة، غير أن الدكتور "المسيري" أوجزه وصولا للمقصود من غير إطالة، بينما أطنب الدكتور "مؤنس" ليزيد بعض حدود التعريف إيضاحا ... وفي كل خير.

- أصول الحضارات:

أرجع **الفلاسفة** مكتشفات الحضارة إلى الذكاء الإنساني وحده، وعندهم لا مجال لتجربة، ولا لظروف وعوامل تساعد على الاكتشاف.

أما **عقيدة المسلمين** في ذلك: أساسها أن الله تعالى أعطى الإنسان العقل والفكر والحكمة، وأنه اهتدى بعقله إلى أسس الحضارة أو العمران، وسار في معارج التقدم، وأنه (ﷻ) دل الإنسان على ما ينفعه رحمة منه ورفقا به(٣).

---

(١) **الغرب والعالم:** تاريخ الحضارة من خلال الموضوعات، كافين رايلي، ترجمة د. عبد الوهاب المسيري ١/١١م.

(٢) **الحضارة**، د. حسين مؤنس، ص١٥.

(٣) **الحضارة**، د. حسين مؤنس ، ص٨٠، ولمزيد من التوضيح راجع: المقدمة، ابن خلدون، ص٤٢، ٤٣.

- **تنوع الحضارات:** من المعلوم بداهة أنه قد ظهرت حضارات كثيرة في أزمان كثيرة، استمرت حينا من الدهر، ثم انهارت، ومن هذه الحضارات:

١- **الحضارات القديمة في الشرق الأوسط:**

(أ) **السامريون:** وهم من سكنوا السهول الخصبة للجزء الجنوبي من بلاد الرافدين. حيث أقاموا حضارة متقدمة في النصف الثاني للألف الخامسة قبل الميلاد، إلا أنهم سرعان ما اختفوا من ساحة التاريخ بعد أن فقدوا استقلالهم السياسي في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد.

(ب) **البابليون:** وقد أخذوا عن السامريين: أسلوب بناء المدن والسدود، والمعارف الرياضية والفلكية، والموهبة الكبيرة في الكتابة، ومن أشهر ملوكهم "حمورابي" في القرن ١٨ ق.م.

(ج) **الآشوريون:** وقد بلغت حضارتهم مداها بعناية الحاكم الآشوري المثقف "آشور بانيبال" الذي تولى الحكم خلال عام ٦٦٩-٦٢٧ ق.م، ولقد عثر على مكتبته العلمية الكبيرة الدبلوماسي الإنجليزي الشاب "كيونجيل" بالقرب من الموصل، حيث تم اكتشاف بقايا العاصمة الآشورية "نينوى".(١)

٢- **الحضارات القديمة في الشرق الأقصى:**

(أ) **الصين:** ظهرت حضارتها في أودية أنهار "يانسة – كيانغ وهوانغ"، وتميزت الحضارة بالمكانة الخاصة للثقافة، وبخاصة: الكتابة والكتاب، مع ظهور ورق البردى، والشروع في تدوين النصوص البوذية المقدسة عندهم.

---

(١) **ينظر:** تاريخ الكتاب، ألكسندر ستينشفيتش، ترجمة: د. محمد الأرناؤط، ١١/١، بعدها، (سلسلة عالم المعرفة الكويتية ١٦٩/ يناير ١٩٩٣م)، ولمزيد ممن التوضيح، راجع: الحضارات السامية القديمة، سبتينوموسكاي، ترجمة: د. السيد بكر، ص ٦١ وما بعدها، ط دار الرقي بيروت، عام ١٩٨٦م، بدون ذكر رقم الطبعة.

(ب) **الهند:** في الألف الثالثة قبل الميلاد تطورت الكتابة الهندية القديمة في مدنها الكبرى: "موهينوداروا" و "هارابا" في وادي نهر الهند، وأقدم الآثار الهندية: المراسيم التي أمر بها الملك " آشوى ٢٧٢- ٢٣٦ ق.م".([1])

٣- **أوروبا في العصر الوسيط:**

في بداية العصر الوسيط: تشكلت ثلاثة أقاليم ثقافية وساسية كبيرة على أنقاض الامبراطورية الرومانية:

ففي **الجزء الغربي:** لها برزت عدة دول تم فيها اندماج البرابرة في البنيات الاقتصادية وقانون الدولة، كما انضم إليهم القوط الغربيون في أسبانيا، واللونغوباردبين في إيطاليا.

- **أما في الامبراطورية الرومانية الشرقية:** فقد تكونت ملامح حضارية واقتصادية واجتماعية كانت ثمرة العصر الوسيط.

- **وفي شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط:** تطورت قوة جديدة تختلف تماما في نهضتها الثقافية والاقتصادية.([2])

- **ومن العصر الوسيط إلى عصر النهضة:** انتهى العصر الوسيط –بداية القرن السابع حتى القرن العاشر ميلادي – وبدأ عصر الإحياء والنهضة بنهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر الميلادي، وبدأ معه الإنبعاث في شتى المجالات، وبخاصة المجال الثقافي، وقد تمثل ذلك في:

---

(١) **ينظر:** تاريخ الكتاب، ألكسندر ستينشفيتش، ترجمة: د. محمد الأرناؤط، ١١/١، بعدها، (سلسلة عالم المعرفة الكويتية ١٦٩/ يناير ١٩٩٣م)، ولمزيد ممن التوضيح، راجع: الحضارات السامية القديمة، سبتينوموسكاي، ترجمة: د. السيد بكر، ص ٤٧ وما بعدها، ط دار الرقي بيروت، عام ١٩٨٦م، بدون ذكر رقم الطبعة.

(٢) **تاريخ الكتاب:** ١ / ١٥١، بتصرف.

(أ) **البحث عن مؤلفات كتاب العصر الوسيط:** واعترفوا لهم بالفضل، واكتشفوا أهم مخطوطاتهم في مكتبات الأديرة، حتى شاهد النور قسم كبير من التراث الأدبي والعلمي، وبخاصة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد.

(ب) **إحياء الثقافة اليونانية في أوروبا الغربية:** وكان ذلك بباعث الخوف من الأتراك بعد الانتصارات المتتالية على الامبراطورية البيزنطية المتراخية.

(ج) **النشاط الأدبي لعصر "آلميديشى":** وكان يجمع كل يوم أكثر الناس معرفة في "فرنسا"، حيث المناقشات الحية حول كل ما يتعلق بسوق الكتب من جديد، مع تسجيل كل اكتشاف جديد لأي مخطوطة قديمة، حيث اشتهر قصر "آلميديشى" – وقتئذ – بأنه أفضل مكان في أوروبا للحصول على أفضل المعلومات.(١)

وهكذا يتضح أنه قد بدأت أوربا عصرا مزدهرا من التقدم والرقي، فهل للتراث الإسلامي في عصره الذهبي دور في ذلك؟ هذا ما يهتم به البحث ويحاول إبرازه بعد تلك اللمحة التاريخية اليسيرة والضرورية، وذلك في النقطة التالية:

*** دور المسلمين في تكوين الفكر الأوروبي:**

– **شيوع التخلف والجهالة في أوروبا:** شاع التخلف وانتشر الجهل في أوربا منذ سقوط الدولة الرومانية الغربية في أواخر القرن الخامس للميلاد، وغطت أوربا في نوم عميق دام قرونا عشرة، كان نصفها الأول منذ القرن الخامس

(١) **راجع:** صراع الحضارات في القرن الحادي والعشرين، ودور الحضارة الإسلامية في هذا الصراع، د. أحمد شلبى، ص٢١٥ ومابعدها، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ط ٢ عام ١٩٩٧م.

حتى العاشر، وسمي "عصر الآباء" الذي تعرضت فيه أوروبا لظلام الجهل والتخلف، وكان نصفها الثاني محاولة لتبديد هذا الظلام، لكن البيئة كانت غير صالحة لنشأة العلم، فإن العلوم لا تثبت في أرض تنتشر فيها الأمية ويشيع فيها السحر وتتفشى الخرافة، ناهيك عن قلة الكتب وفقر المكتبات وندرة المدارس وفوضى الجامعات وفساد الأخلاق ... بينما كان **على الجانب الآخر:**

- **ازدهار الفكر في عصر الإسلام الذهبي:** تظهر الهوة السحيقة التي كانت تفصل بين أوربا بوضعها السابق الإشارة إليه، وبلاد الإسلام التي كان يرعى الخلفاء فيها العلماء، ويشيدون المكتبات، ويهتمون بحركة الترجمة التي استمرت "حركة أمة" قرنا ونصف القرن، فتفاعل التراث الأجنبي الدخيل مع التراث الإسلامي الأصيل، فكانت الأصالة والابتكار في تراث المسلمين. وكان العصر العباسي غنيا بمكتبات ضخمة: أهمها "بيت الحكمة" التي أنشأها "الرشيد "وتعهدها "المأمون" ونماها، وضمت مائة ألف مجلد من العلوم غير الدينية، منها ستة آلاف مخطوط في الرياضيات والفلك.

أضف إلى ذلك "دار الكتب" في قرطبة، والتي ضمت مائتي ألف مجلد، وكانت فهارسها **(فقط)** تستغرق أربعا وأربعين كراسة.(١)

- **أوروبا تنقل التراث العربي:** كانت "صقلية" و "الأندلس" تحت راية الإسلام وحكم المسلمين الذين أشاعوا في ربوعهما العلم والحضارة والعدل والتسامح الديني:

ففي صقلية: بدأت حركة التلقيح الأولى في النصف الأخير من القرن الحادي عشر، ذلك أن غرب أفريقيا قد أبحروا عام ٨٢٧، وظلوا بها حتى أواخر القرن الحادي عشر وقد تسامع ملكها "روجاراكثانى" بأعظم الجغرافيين

(١) ينظر: في تراثنا العربي الإسلامي، د. توفيق الطويل، ص ٢٠٥، ٢٠٦، (عدد/ مارس ١٩٨٥م) .

"الشريف الإدريسي"، فاستدعاه وأغدق عليه النعم، وأمر أن تفرغ له كرة عظيمة من الفضة رسم عليها الإدريسي الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسبلها وما بين كل بلد من الطرقات والمراسى، وطلب الملك أن يضع كتابا عن هذه الكرة الأرضية، فوضع كتابه المعروف: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وكان آية في الدقة.

وظل التأثير الإسلامي واضحا إلى حد جعل الملك يلبس عباءة فاخرة مكتوبا عليها بالأحرف العربية الكوفية تشبها بالخليفة الفاطمي، ثم أنشأ ديوانا للترجمة عمل به علماء من المسلمين والنصارى، ونقلوا العلوم العربية إلى اللغة اللاتينية.

أما في بلاد الأندلس: فقد كانت حركة نقل العلم الإسلامي منها إلى أوروبا في ظل تسامح ديني امتد أثره إلى العلماء المسلمين الذين أقبلوا من أنحاء أوروبا لتلقى العلم في حواضر الإسلام الأندلسية.

وربما كان **أول باحث أوروبي أشاد بفضل العرب على الحضارة الأوروبية وثقافة عصر النهضة،** هو الأسباني "جوان أندريس" الذي نشر بالإيطالية في بارما عام ١٧٨٢م كتابا جليلا في سبعة مجلدات، بعنوان: أصول كل الآداب وتطورها وأحوالها الراهنة، أكد فيه أن النهضة التي قامت في "أوروبا" في كل ميادين العلوم والفنون والآداب مردها إلى ما ورثته عن حضارة العرب.(١)

---

(١) **ينظر:** في تراثنا العربي الإسلامي، د. توفيق الطويل، ص ٢٠٩ – ٢١١، بتصرف، ولمزيد من التوضيح، راجع:

(أ) **فضل الإسلام على الحضارة الإنسانية،** للعلامة الهندي: شلبي النعماني، ترجمة د. عبد العزيز عزت، مطابع الأزهر الشريف، ط ١ عام ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(ب) المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، د. سعيد عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢ عام ١٩٨٢م.

– دور المسلمين في تكوين التفكير العلمي عند الأوربيين: بدأ دور المسلمين في تكوين التفكير العلمي في أوربا في علوم الطب، وعلومه المساعدة من الصيدلة والكيمياء والنبات، ثم في الطبيعة والفلك والرياضيات والفلسفة، **فلنقف عند أمثلة من هذه العلوم:**

أما الطب العربي الإسلامي: فقد كان يستهدف حفظ الصحة على الأصحاء، بدراسة الجسم ووظائف أعضائه، واكتشاف أسباب الأمراض وطرق انتشارها. وقد عرفت في طب العرب موسوعات طبية إسلامية ترجمت كلها إلى اللاتينية، وألم بها أطباء أوروبا، ونهلوا من معينها حتى مطلع العصور الحديثة، وفي مقدمتها كتاب "القانون" لابن سينا، والكتاب الملكي في الطب لعلي بن عباس، كما ضمن خلف بن قاسم الزهراوي كتابه: التصريف لمن عجز عن التأليف، قسما هاما عن الجراحة ... إلخ

هذا كله في وقت حرمت فيه الكنيسة في أوروبا صناعة الطب، لأن المرض – في نظرها – عقاب من الله، ليس من حق الإنسان أن يصرفه عمن يستحقه، وظل الطب محرما في أوروبا حتى القرن الثاني عشر إبان الحضارة الأندلسية.([1])

وفي علم الكيمياء: يكاد ينعقد الرأي عند الباحثين الغربيين أن العرب هم مؤسسو الكيمياء علما تجريبيا، فهم الذين خلصوا دراساته من السرية والغموض والرمزية، وطبقوا فيها منهجا استقرائيا سليما يعتمد على الملاحظة الحسية والتجربة العلمية، واستخدموا الموازين والمكاييل وغيرها من الآلات تحقيقا للدقة والضبط، وكانت هذه وثبة جريئة في التمكين لمنهج البحث العلمي الصحيح.

---

(١) **في تراثنا العربي الإسلامي**، د. توفيق الطويل، ص ٢٢٤ – ٢٢٥، بتصرف.

وفي مقدمة رواد الكيمياء: "جابر بن حيان ت ٨١٣م" و "أبو بكر الرازي ت٩٣٢م" ... وغيرهما.

أما علم النباتات: فقد نما على يد المسلمين في خدمة الطب والصيدلة والفلاحة، وقد اصطنعوا في دراساتهم للنباتات الملاحظة والمعاينة، حتى كان "رشيد الدين الصوري ٦٣٩هـ" يصحب معه مصورا يحمل الأصباغ المختلفة كلما ذهب إلى مواضع النباتات، ويعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله بحسبها، ويجرب في محاكاتها.

وفي ضوء هذا المنهج التجريبي وفق علماء المسلمين في معرفة الكثير من المواد الطبيعية، وأدخلوها في العقاقير الطبية، وأكسبوا بعض النباتات خصائص العقاقير في مفعولها الطبي.

ومن أشهر علماء العرب دقة في النباتات: أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي ت ٥٥٠هـ، وقد ضمن كتابه: الأدوية المفردة أسماء النباتات بالعربية واللاتينية والبربرية.(١)

تعليق: من العرض السابق يظهر لنا:

١- أن التراث العربي في عصر الإسلام الذهبي كان من النضج والازدهار، بحيث احتل مكان الصدارة من العالم كله فكرا وحضارة، وعلما وثقافة.

٢- أن أوروبا كانت قبل نزول الإسلام وبعده في حال مزرية من البداوة والتخلف والجهل، وأنها حين همت باليقظة لم تجد مفرا من أن تأخذ عن التراث العربي والإسلامي الذي كان وحده منارة الفكر العلمي في تلك العصور.

٣- هناك مسالك كثيرة وطرق متنوعة عبر التراث العربي الإسلامي عن طريقها إلى أوروبا، فحول ظلامها إلى نور، وتخلفها وبداوتها إلى تقدم وحضارة.

---

(١) **في تراثنا العربي الإسلامي**، د. توفيق الطويل، ص ٢٢٨ وما بعدها، بتصرف.

٤- لم يكن في وسع العرب والمسلمين في عصرهم أن يسابقوا الزمن وتطوره بأكثر مما فعلوا، فيكفى أن يرد إليهم الفضل في المحافظة على التراث القديم الذي تلقوه من بناة الحضارات القديمة، وإضافة كنوز من الحقائق الأصلية المبتكرة التي لم تكن معروفة من قبل، وتسليم هذا التراث الخصيب إلى أوروبا في مطلع يقظتها بعد النوم العميق الذي غطت فيه قرونا طوالا.

٥- أن المسلمين حين سلموا القبس إلى أوربا فاستضاءت به بعد ظلمة، بلغت بعد ذلك ما بلغته من النور الذي تكشفت به نهضتها، ولو لم يحمل العرب ذلك القبس المضئ لكان من أعسر الأمور أن يقدح الأوروبيون نوره من جديد.

- **تعضيد معاصر:** نعضد ما أوردناه سابقا بآراء تؤكد أن للإسلام تأثيرا كبيرا في التقدم الأوروبي الحالي:

- **يقول رئيس وزراء الهند السابق "جوهرلال نهرو":** إن دخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند، ففضح الفساد وقضى على العزلة، وحمل مشعلا من نور انجلت له الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدنى.(١)

- **بينما يؤكد العالم الإنجليزي "روبرت بريفولت" أنه:** "ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير، وآثار حاسمة لها تأثير كبير".(٢)

ولما كان الأمر كذلك، وهو ما شهد به القاصي والداني، ... مما يدفعنا لمحاولة إماطة اللثام عن المعلم الأهم من معالم حضارة الإسلام في المطلب القادم.

---

(١) **راجع:** ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ابو الحسن الندوى، ص ١١٧، ١١٨، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

(٢) نفس المرجع السابق.

المطلب الثاني
استراتيجية العمران في الفكر الإسلامي

امتاز الفكر الإسلامي بالشمولية في مبادئه العامة، وبالتخصصية في جزئيات التطبيق، فهو يبدأ بالأعم الأشمل كسياسة عامة، وينتهي إلى التخصص الدقيق في كل فرع من الفروع، كانعكاس للنظام الإداري للدولة الإسلامية ذاته، والذي يقوم على رأسه الحاكم ومعاونوه، وينتهي إلى القاعدة العريضة من أفراد الأمة، وتتدرج هذه المستويات ومسئولياتها بتدرج البحث في الفكر العمراني الإسلامي تدرجا يبدأ من عرض سياسة العمران للدولة بصفة عامة، ثم ينتقل إلى الفكر الموجه لتخطيط المدن، ثم يصل إلى دراسة دقائق الحرف والصناعات المتصلة بالعمران، وهو كل يعمل في إطار واحد، ويؤثر وتتأثر جزيئاته بعضها ببعض.

- **العوامل الإسلامية الدافعة للتمدن:** ظهرت في التراث الإسلامي كتب كثيرة، تضمنت أبوابا خاصة بالعمران، توضح الأسس والنظريات التي يجب على الحاكم المسلم اتباعها فيما يختص بسياسة العمران، وكانت هذه المصادر من وضع علماء على علم واسع بحياة المجتمع والتغيرات التي تواكبها، ومن أهم هذه المصادر:

- سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال، شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع، وقد كتبه للخليفة المعتصم العباسي.
- الأحكام السلطانية، للماوردي.
- السياسة، لابن حزم.
- الشهب اللامعة في السياسة النافعة، لابن رضوان.
- بدائع السلك في طبائع الملك، لابن الأزرق.

وبعد قراءة مستوعبة لأهم هذه المصادر نجد أنها قد اتفقت على عدة عوامل إسلامية دافعة للتمدن، لعل من أهمها:

١- يعتبر الفكر الإسلامي " تكثير العمارة" من أركان الملك، حتى عدها ابن الأزرق الركن الخامس بعد "نصب الوزير، وإقامة الشريعة، وإعداد الجند، وحفظ المال".(١)

وهذا يكشف عن نظرة واعية متكاملة الفكر يدعو إلى تكثير العمارة، وتسهيل أسبابها من جانب الحاكم بوضعه السبيل إلى ذلك، لرخاء العيش، وكثرة الأغنياء، وبالتالي كثرة مصادر الزكاة التي هي حق الفقراء، فيحدث النفع للجميع وتتحقق العدالة الاجتماعية، مما يكشف عن ذلك في الفكر الإسلامي قول ابن حزم:

"ويأخذ السلطان الناس بالتجارة وكثرة الغراس، ويقطعهم الإقطاعات في الأرض الموات، ويجعل لكل واحد ملك ما عمر، ويعينه على ذلك لترخص الأسعار، ويعيش الناس والحيوان، ويعظم الأمر، ويكثر الأغنياء، والمال الذي يجب فيه الزكاة".(٢)

٢- دعا الفكر الإسلامي العمراني إلى الاهتمام بالمزارعين:

وتلك رؤية عمرانية واعية، سيما أن كثيرا من المدن في تلك العصور كانت تعتمد على أقاليمها التي تزودها بالغذاء، وهو أمر إن كان يتفق مع النظرية التي

---

(١) **المدينة الإسلامية**، د. محمد عبد الستار عثمان، ص ٢٥، نقلا عن: بدائع السلك في طبائع الملك، ابن الأزرق، تحقيق: د. محمد عبد الكريم، ٢٢٣/١، نشر الدار العربية للكتاب بدون.

(٢) **مروج الذهب**، المسعودي، /٣٤٤، ط بيروت عام ١٩٦٥م، وكذا: المدينة الإسلامية. د. محمد عبدالستار عثمان، ص ٢٦.

تربط نشأة المدن بتوفر الغذاء الزائد عن حاجة المنتجين، والذي يكفى لإعاشة طبقات أخرى.

وتميز الهيئة الإجتماعية للمدن الإسلامية كانت في مناطق متوسطة من أقاليم زراعية تزود هذه المدن بحاجاتها الغذائية، وعد ذلك شرطا أساسيا من شروط اختيار موقع المدينة، ولذا: كان التحذير من إضعاف المزارعين، فإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين، فتخرب الأرض ويهرب الزرع، فتضعف العمارة ويضعف الخراج، وينتج من ذلك ضعف الأجناد، وإذا ضعف الجند طمع العدو، ويصدق على ذلك قول زياد بن أبيه: أحسنوا إلى المزارعين، فإنكم لا تزالوا سمانا ماسمنوا.(١)

٣- **يشير الفكر الإسلامي إلى أنه لا عمارة إلا بالعدل،** فبه عمرت الأرض وقامت الممالك، بل إن أقوى الأسباب في الاعتمار هو تقليل الوظائف على المعتمرين ما أمكن، فذلك منشط النفوس إليه، ليقينها إدراك المنفعة فيه، وذلك غاية التوازن الدافعة إلى كثرة الإنتاج، فيزدهر العمران. أما الظلم يؤدي إلى خراب العمارة وتلف الأموال وهلاك الجنود.(٢)

٤- اشترط الفكر الإسلامي شروطا تجب مراعاتها في التعمير:

فقد حدد شروطا ستة في اختيار **موقع المدينة**، وهي:

١- سعة المياة المستعذبة.
٢- إمكان المسيرة المستمدة.
٣- اعتدال المكان وجودة الهواء.
٤- القرب من المرعى والاحتطاب.
٥- تحصين منازلها من الأعداء.
٦- أن يحيط بها سور يعين أهلها.

---

(١) **ينظر:** المدينة الإسلامية، د. محمد عبد الستار عثمان، ص٢٧، وعزا قول زياد هذا إلى: بدائع السلك في طبائع الملك، لابن الأزرق، ٢٢٥/١١.

(٢) السابق، ص ٢٨.

وعند تخطيط **موضع المدينة**، هناك **شروط ثمانية** يجب أن يراعيها الحاكم:

١- أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب أهلها، ويسهل تناوله من غير عسف.

٢- أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق.

٣- أن يبني جامعا للصلاة في وسطها ليتعرف على جميع أهلها.

٤- أن يقدر أسواقها بحسب كفايتها، لينال سكانها حوائجهم عن قرب.

٥- أن يميز بين قبائل ساكنيها، بأن لا يجمع أضدادا مختلفة متباينة بها.

٦- أن يجعل خواص محيطين من سائر جهاته.

٧- أن يحيطها بسور مخافة الأعداء، لأنها بجملتها دار واحدة.

٨- أن ينقل إليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها، حتى يكتفوا عن الخروج إلى غيرها.(١)

تعليق: تكشف هذه الشروط عن رؤية تخطيطية للمدينة الإسلامية مما يؤكد أصالتها، وعمق الفكر الإسلامي ورؤيته السليمة في تخطيط المدن، وهو فكر نضج مع تقدم العصر، مستفيدا في ذلك بالتجربة.

أما تدوين هذا الفكر في كل هذه المصادر، فإنه يكشف – من زاوية أخرى – عن المستوى الحضاري في الفكر الإسلامي الذي حرص على تسجيل تاريخ مدنه وأعلامها وخططها، باعتباره ثقافة حضارية عمرانية.

ومن الجانب النظري إلى الجانب العملي:

إشارة لإنشاء المدن الإسلامية: كان إنشاء المدن من الظواهر التي واكبت الفتوح الإسلامية، حيث صحب اعتناق الدين الجديد تطور ملموس في الحياة

---

(١) **عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها**، د. محمد السيد الوكيل، ص ٨٧ ومابعدها، ط دار الأنصار بالقاهرة، ط ١ عام ١٤٠٢هـ، وكذا: المدينة الإسلامية، د. محمد عبد الستار عمان، ص٢٩، ٣٠.

العمرانية، وكان إنشاء المدينة عملية طبيعية بعد الفتح، ومن الأمثلة على ذلك في إشارة سريعة:

- **في العراق:** البصرة والكوفة وواسط وبغداد وسرمن رأى والجعفرية.
- **في مصر:** الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة.
- **في المغرب:** القيروان والرباط...إلخ.(١)

ويجب أن ننوه أنه سواء كانت هذه المدن كلها من إنشائهم، أو كان منها ما هو موجود قبل دخول المسلمين، ولكنه اندثر وتداعى، وأعاد المسلمون بناءه وجددوه ... فهو نوع من التمصير على أى حال.

البصرة أول مدينة أحدثت في الإسلام: وكان ذلك في العام الرابع عشر من الهجرة، وقد أسسها عتبة بن غزوان بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، فأسسها على الشاطئ الغربي للنهر المتكون من التقاء دجلة والفرات.(٢)

ومن أهم مساجدها: المسجد الجامع ومسجد عاصم بن ربيعة ومسجد بني عباد.

وأهم مرافقها:

قنطرة قرة بن حيان.

مفيض أم عبدالله، وهو الذي يصرف فيه الماء الجاري.

السوق، الذي اشترى أرضه عبدالله بن عامر وتصدق بها على المسلمين.

حوض الدهناء.(٣)

---

(١) **ينظر:** عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها، د. محمد السيد الوكيل، ص ١٠.

(٢) السابق، ص ١٥.

(٣) **للمزيد:** انظر: المرجع السابق، ص ٢١، ٢٢.

تعليق: قد يمر علينا مرور الكرام عبارة (بناء مدينة)، وهي لعمري تتطلب جهودا كبيرة وأموالا ليست باليسيرة ... فعلى المستوى الشخصي: من يبني بيتا يبذل الغالي والنفيس في تأسيسه وإنشائه ... فما بالنا بمدينة متكاملة بما فيها من بيوت ومساجد وأسواق و ... إلخ، والحق أقول إنها جهود وجهود وأموال لا حصر لها ... وهذا في مدينة واحدة، فما بالك بعدة مدن، إنه جهد جهيد.

وبعد بيان هذا الجانب النظري والعملي ننتقل إلى الإشارة إلى أبرز رموز الفكر العمراني في الإسلام في المطلب القادم.

المطلب الثالث

ابن خلدون
أبرز رموز الفكر العمراني في الإسلام

خطوة إلى الوراء: قبل الحديث عن ابن خلدون علينا أن نرجع خطوة إلى الوراء حتى تأتي القفزة محكمة إن شاء الله تعالى... وذلك هو:

معالم تأصيل المبدأ العمراني قبل "ابن خلدون":

حفل القرآن الكريم بإشارات عمرانية كثيرة(١)، ومواقف العمران في السنة النبوية ليست باليسيرة، وما موقفه (ﷺ) من بناء المسجد بالمدينة عنا بغائب: وعلى الدرب سار الخلفاء الراشدون:

- فها هو عمر بن الخطاب يكتب إلى سعد بن أبي وقاص:

إن العرب بمنزلة الإبل،لا يصلحها إلا مايصلح الإبل، فارتد لهم موضعا عندنا، ولا تجعل بيني وبينهم بحرا.(٢)

وكذلك يأمر ببناء المسجد خارج الحيز العمراني، ليسهل قصد الناس له لأداء الصلاة.(٣)

---

(١) **راجع:** -على سبيل المثال – رؤيتين إحداهما قديمة، والثانية معاصرة:

(أ) **تنبيه العقول الإنسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية**، للشيخ/ محمد بخيت المطبعي، مطبعة السعادة بالقاهرة، بدون.

(ب) **نظرات في الكون والقرآن**، د. عبدالهادى ناصر، مرجع سابق.

(٢) **عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها**، د. محمد السيد الوكيل، ص ٢١.

(٣) **من فقه عمر**، د. محمود محمد عمارة، ص١١١، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة، بدون.

– أما على بن أبي طالب – كرم الله وجهه– فقد أرسل إلى محمد بن أبي بكر إبان ولايته على مصر:

عليك بالشفاق في جمع الخراج، ولابد أن تقترن جبايتك للخراج بالعمارة، أما نصيبك منها فلا بد أن يكون بقدر حاجتك، فإن زدت فإنك ستكون عظة وعبرة لمن يلحق.(١)

وهذا مانريد أن نلفت النظر إليه بوجود المبدأ العمراني متأصلا، حتى مجئ "ابن خلدون" وهي أمور جديرة بالدراسة من شباب الباحثين نقترح أن تكون بعنوان: الفكر العمراني عند عمر بن الخطاب، ودلالته الحضارية الدعوية.

أو عند غيره من الخلفاء الراشدين، أو عندهم جميعا، ومدى صلاحيته للمجتمع المعاصر.

تعليق: ننتقل الآن إلى المؤرخ الفذ وهو من ينفذ ببصيرته إلى جوهر التاريخ، وكذلك فعل "ابن خلدون"، ففاق "أرسطو" و"أفلاطون"، ويستحق أن يكون ظاهرة سابقة لعصرها، فلا عجب – إذا – أن نهتم بفكر هذا الرجل، ونثبت له بعض أسس نظرياته في الحضارة، وكذلك في **علم الأنثروبولوجيا:** وهي كلمة انجليزية: anthropology وأصلها يوناني: حيث: Anthropos تعني إنسانا، و logos تعني علما ... فيكون هذا العلم مختصا بدراسة الإنسان.

أولا: نظريات "ابن خلدون" في الحضارة:

لقد بسط "ابن خلدون" أسس هذه النظريات في مقدمته المشهورة، واعتبرها محورا لآرائه في سير التاريخ، وحاول تطبيقها على تاريخ دول المسلمين، وسماها: **دورة العمران**، وخلاصتها في رأيه:

(١) **راجع:** نظرات في الكون والقرآن، د. عبد الهادي ناصر، ص ١٩، ٢٠.

١- البداوة هي المرحلة الأولى من حياة كل جماعة إنسانية: وهو شديد الإعجاب بالبداوة، معتبرا إياها معينا لعدد من أكبر الفضائل الإنسانية، وذلك قوله: "البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر، والبادية أصل العمران والأمصار مدد لها".(١)

ويعلق الدكتور/ حسين مؤنس، على هذا الأساس، بقوله:

"معنى ذلك أن التطور الاجتماعي الحضاري يبدأ عند ابن خلدون عند أهل البداوة، ويتطور هؤلاء حتى يصيروا أهل حضر، والبداوة عنده تشمل الرعاة والفلاحين".(٢)

٢- يقسم ابن خلدون أدوار تطور الجماعات إلى مراحل، يغلب أنها أربع، ولكنها قد تكون ثلاثا، وقد تصل إلى ست، ولكن كل صعود مهما طال فمصيره إلى الهبوط، ويسمى أدوار هذا التطور: "أدوار شرف"، والشرف عنده في هذا المجال: وصول الأمة إلى أعلى درجات القوة والسلطان السياسي.(٣)

وملامح هذا التقسيم تظهر عند ابن خلدون في قوله:

"**ثم إن نهايته – أي نهاية الشرف- أربعة آباء:** وذلك أن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه، ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه، وابنه من بعده مباشر لأبيه، قد سمع منه ذلك وأخذه عنه، إلا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعانى له، فإذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة، فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد، ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة، وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها، وتوهم أن

---

(١) **المقدمة**، ابن خلدون، ص ١٣٥، مرجع سابق.

(٢) **الحضارة** / د. حسين مؤنس، ص٥٤، بتصرف.

(٣) **ينظر:** المرجع السابق، ص ١٥٥.

ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف، وإنما هو أمر واجب لهم منذ النشأة بمجرد انتسابهم".([1])

٣- يتحدث "ابن خلدون" بعد ذلك عن تداول الأيام كسنة كونية: ويعقد فصلا عنوانه "في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عوده إلى شعب آخر مادامت لهم العصبية"([2]) يصف فيه كيف تتنافس أمم البداوة على الملك والغلب، فيفوز بهما منهم فريق يستبد بالأمر، ويتفرد بالحضارة و .. وهكذا تستمر دورة التاريخ ودورة العمران.

٤- يحمل ابن خلدون في مقدمته على الحضارة، ويرى أنها تضعف من يملك أسبابها، ويطمئن في مهادها ويستسلم لنعيمها، فيضعف منه النزوع إلى القوة، ويقل حماسه للجهاد والصراع، وتفسد الحضارة طبعه، ويستولى عليه الترف، فيفسد ويضمحل.([4])

وقد ذكر الدكتور/ حسين مؤنس أن هذا الرأي سقطة علمية، وحاول نقضه بقوله: إذ إن التحضر والتدرج في مراتب الحضارة لايضعف الإنسان أو الجماعة، بل يقويه ويقويها ... ولكن الذي يضعف البشر هو سوء استخدامهم لنعيم الحضارة، فالأمم الدابرة كانوا يسيئون استخدام ما ملكوه من أسباب التمدن، فيسرفون في التنعم، ويخلدون إلى التبطل والدعة، ويسرفون في الطعام والشراب، وتنصرف هممهم إلى التفنن في الاستمتاع، فيستكثرون من النساء مع

---

(١) **المقدمة:** ابن خلدون، ص ١٣٧.

(٢)**المقدمة:** ابن خلدون، ص١٤٥ ومابعدها، ولمزيد من التوضيح، راجع: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ساطع الحصرى، ط مشتركة بين مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الكتاب العربي ببيروت، ط ٣ عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

(٣) **راجع: الحضارة**، د. حسين مؤنس، ص٥٥.

(٤) **انظر:** المقدمة، ابن خلدون، ص ١٤٨.

الإقبال على الخمر، فلا وقت أمامهم – والحالة هذه – لمباشرة أمور دولتهم، فتضعف قبضتهم على السلطان، فيفلت زمام الأمور من أيديهم، فتضمحل قواهم، ويتمهد الطريق لغيرهم للتغلب عليهم، وانتزاع الملك والسيادة من أيديهم، أنها سيطرة أدوات الحضارة على الإنسان،بدلا من سيطرته عليها.[1]

إنها عبث الانسان بعود ثقاب ليحرق نفسه وزرعه، أو تسخيره لإشعال منضبط للنار، فيكون القرار.

تعليق: هكذا سبق "ابن خلدون" مفكرى القرنين الثامن عشر والتاسع عشرجميعا في بلورة نظرية متكاملة عن مراحل تطور الحضارة الانسانية، المسار الذي يحكمها، ومسألة أطوار الدول من ناحية قيامها، ثم ما يجرى عليها بعد ذلك من أحوال.

ثانيا: ابن خلدون وبواكير علم الأنثروبولوجيا:

تطرق ابن خلدون في مقدمته إلى موضوعات شكلت فيما بعد اهتماما رئيسا في تلك الدراسات التي تعنى بتاريخ علم الإنسان، وحسبنا أن نشيرسريعا إلى:

(أ) اهتمامه بمبدأ العصبية، وأهميته في فهم المجتمع القبلي، وتأكيده على "أن التنظيم الاجتماعي الخاص بالبداوة يقوم على مبدأ قرابة الدم الذي يحدد الولاءات والعصبية حتى تكاد القبيلة تشكل مجتمعا قائما بذاته، ولذاته خلال تاريخ طويل".(٢)

---

(١) **ينظر:** الحضارة، د. حسين مؤنس، ص١٥٦، ٢/٥٧، وللوقوف على كثير من الحضارات التي هوت بأصحابها، راجع: حضارات ورد ذكرها في القران الكريم والسنة النبوية، عبد الحكم الصعيدي، ط الدار العربية للكتاب،ط عام ١٩٩٥م.

(٢) **ينظر:** المقدمة، ابن خلدون، ص ٧٠.

(ب) إظهاره لارتباط تنوع أنماط المعيشة بالتباين الحضاري، بتفصيله للقيم السائدة لدى الأنماط المعيشية الثلاثة (البداوة والفلاحة والحضارة) ومقارنته بين تلك السمات، وبحثه في طبيعة العلاقات بينهم وذلك قوله: "إن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله، والإبتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجة والكمال.(١)

(ج) إظهاره للعلاقة القائمة بين البيئة الجغرافية وشئون الاجتماع: فقد اعتبر البيئة الجغرافية دعامة هامة لمختلف الظواهر الاجتماعية، ومن ذلك قوله: "وقد بينا أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في النوب والبرد في الشمال، ولما كان الجنبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا، فالإقليم الرابع أعدل العمران، والثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيد عن الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير".(٢)

تلك لمحات يسيرة دارت حول ابن خلدون – الذي اضطلع بفكره علماء ومفكرون –أشرنا إليها إشارات خاطفة، لعل شباب الأمة يعود إلى رموزها وكنوزها، وينهل من علمهم، ويغترف من فكرهم، والأهم – من قبل ومن بعد – أن نعترف بفضلهم بعد أن نطالع علمهم.

(١) **ينظر: المقدمة**، ابن خلدون، ص ١٧٨، وكذا: قصة الأنثروبولوجيا، د. حسين فهيم، ص ٦٦، مرجع سابق.

(٢) **المقدمة:** ص ١٨٠، وقصة الانثروبولوجيا، ص ٦٧.

المطلب الرابع

نحن والحضارة بين " الفعل " و " الانفعال"

النقطة الأولى: وقفة مع العرض السابق لتحديد الموقف:

اتضح لنا من خلال العرض السابق أثناء متابعة بعض الحضارات القديمة، قبل الانتقال الى الحضارة الأوروبية، ورأينا حكمة الله تعالى في تداول الأيام وتغيير الأوضاع، وعلينا أن نقرأ التاريخ بتمعن لنتعرف على تحليل أسباب انهيار تلك الحضارات بالعباد، الذين طغوا في البلاد.

- اتضح لنا -كذلك- روافد نقل التراث الإسلامي إلى أوروبا، وهي نقطة جديرة بالاهتمام، لنعرف سبق المسلمين في كل مجالات الحياة العلمية والأدبية والاجتماعية.

- تم توضيح الجانب النظري في استراتيجية العمران في الفكر الاسلامي، وذلك من خلال بيان العوامل الاسلامية الدافعة للتمدن، والشروط الواجب مراعاتها في اختيار موقع المدن وتخطيطها ...إلخ.

- في حديثنا عن "ابن خلدون" كرائد مبرز محلق في سماء الفكر العمراني في الاسلام، وبخاصة مايتعلق ببعض أسس نظرياته الحضارية، وإشاراته التي تعد إسهامات أولية لعلم حديث يختص بدراسة تاريخ الإنسانية، وهو علم"الأنثروبولوجيا".

النقطة الثانية: أسس التعامل مع الحضارة القائمة: لتحديد :

موقفنا نحن من الحضارة المعاصرة، ولكي نتعامل معها في جانبها المادي، علينا أن ندرك عدة أمور:

الأول: هذه حضارتنا ردت إلينا، نحن أحق بها وأهلها، فلا ننشغل بالانبهار الذي قد يضعف إيماننا بأنفسنا وديننا، أو قد يؤدي-من كثرة الضيق- للانفجار.

الثاني: علينا أن ننتقل من مقام " المنفعل" إلى مقام " الفاعل".

ولأجل ذلك علينا أن نشجع روح الابتكار في أطفالنا، واستخراج مواهبنا المدفونة، بدلا من مناهج التعليم التي تعلم الأطفال – فقط – كيف يحفظون مع غياب عنصر التربية الذي هو سبيل لتكوين "الروح الابتكارية"، ففي نطاقها تظهر المهارات.

وإن أردنا تحقيق ذلك، علينا أن نأخذ خطوة إلى الخلف، ونتساءل:

هل نعلم الأطفال، أم نربي الأطفال؟

بمعنى: هل نصب في الأدمغة، أم نربي المهارات؟

ثم – وهو الأهم – علينا أن نرفع قدر علمائنا ومفكرينا، وأن نرصد أعلى الأرصدة من الأموال، وأعلى الأوسمة معنويا لكل مبتكر، حتى ينطلق شبابنا وأمامهم قدوة تتملى ومثل يحتذى.

الثالث: ليس هناك تصادم بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب، ولكنه تدافع، هذا ما أكده القرآن في قوله: {**ولولا دفع الله الناس بعضهم بعض لفسدت الأرض**}.([1])

وهذا يعني أن الأرض ستفسد إذا ألغى التدافع، والذي يعني: التسابق والتنافس نحو الخير في إطار التعارف الإنساني والتعاون البناء.

بهذه الأسس نستعيد طريقا من طرق النهوض بأمتنا، ونحافظ على موروثنا الحضاري العظيم.

(١) سورة البقرة من الآية ٢٥١.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث تأكدت لنا النتائج التالية:

أولا: أرجع **الفلاسفة** مكتشفات الحضارة إلى الذكاء الإنساني وحده، وعندهم لا مجال لتجربة، ولا لظروف وعوامل تساعد على الاكتشاف

أما **عقيدة المسلمين** في ذلك: أساسها أن الله تعالى أعطى الإنسان العقل والفكر والحكمة، وأنه اهتدى بعقله إلى أسس الحضارة أو العمران، وسار في معارج التقدم، وأنه (ﷻ) دل الإنسان على ما ينفعه رحمة منه ورفقا به.

ثانيا: ظهرت حضارات كثيرة في أزمان كثيرة، استمرت حينا من الدهر، ثم انهارت، ومن هذه الحضارات: **الحضارات القديمة في الشرق الأوسط، والحضارات القديمة في الشرق الأقصى** في الصين والهند، وفي **أوروبا في العصر الوسيط.....** إلخ

ثالثا: من روافد **نقل التراث العربي الإسلامي إلى أروبا** عندما كانت "صقلية " و "الأندلس" تحت راية الإسلام وحكم المسلمين الذين أشاعوا في ربوعهما العلم والحضارة والعدل والتسامح الديني، وكان **أول باحث أوروبي أشاد بفضل العرب على الحضارة الأوروبية وثقافة عصر النهضة،** هو الأسباني" جوان أندريس" الذي نشر بالإيطالية في بارما عام ١٧٨٢م كتابا جليلا في سبعة مجلدات، بعنوان: أصول كل الآداب وتطورها وأحوالها الراهنة، أكد فيه أن النهضة التي قامت في "أوروبا" في كل ميادين العلوم والفنون والآداب مردها إلى ما ورثته عن حضارة العرب.

رابعا: بدأ دور المسلمين في تكوين التفكير العلمي عند الأوربيين في علوم الطب، وعلومه المساعدة من الصيدلة والكيمياء والنبات، ثم في الطبيعة والفلك والرياضيات والفلسفة.

خامسا: لم يكن في وسع العرب والمسلمين في عصرهم أن يسابقوا الزمن وتطوره بأكثر مما فعلوا، فيكفى أن يرد إليهم الفضل في المحافظة على التراث القديم الذي تلقوه من بناة الحضارات القديمة، وإضافة كنوز من الحقائق الأصلية المبتكرة التي لم تكن معروفة من قبل، وتسليم هذا التراث الخصيب إلى أوروبا في مطلع يقظتها بعد النوم العميق الذي غطت فيه قرونا طوالا. خاصة أن المسلمين حين سلموا القبس إلى أوربا فاستضاءت به بعد ظلمة، بلغت بعد ذلك ما بلغته من النور الذي تكشفت به نهضتها، ولو لم يحمل العرب ذلك القبس المضئ لكان من أعسر الأمور أن يقدح الأوروبيون نوره من جديد.

سادسا: توجد استراتيجية واضحة للفكر العمراني في الإسلام، حيث يعتبر الفكر الإسلامي "تكثير العمارة" من أركان الملك، حتى عدها ابن الأزرق الركن الخامس بعد "نصب الوزير، وإقامة الشريعة، وإعداد الجند، وحفظ المال". مما يكشف عن نظرة واعية متكاملة لهذا الفكرالعمراني الذي يدعو إلى تكثير العمارة، وتسهيل أسبابها من جانب الحاكم بوصفه السبيل إلى رخاء العيش، وكثرة الأموال، وبالتالي كثرة مصادر الزكاة التي هي حق الفقراء، فيحدث النفع للجميع وتتحقق العدالة الاجتماعية.

سابعا: توجد رؤية تخطيطية للمدينة الإسلامية مما يؤكد أصالتها، وعمق الفكر الإسلامي ورؤيته السليمة في تخطيط المدن، وهو فكر نضج مع تقدم العصر، مستفيدا في ذلك بالتجربة العلمية والعملية.

ثامنا: يعتبر ابن خلدون الرمز البارز للفكر العمراني الإسلامي ناهيك عن أنه مؤرخ فذ، نفذ ببصيرته إلى جوهر التاريخ، ففاق "أرسطو" و"أفلاطون"، وهذا جعله يستحق عن جدارة أن يكون ظاهرة سابقة لعصرها ... فضلا عن كونه الأب المؤسس لعلم الأنثروبولوجيا المعاصر.

تاسعا: علينا أن نتعامل مع الحضارة القائمة من منطلق: هذه حضارتنا ردت إلينا، نحن أحق بها وأهلها، وكذلك علينا أن ننتقل من مقام "المنفعل" إلى مقام "الفاعل".

عاشرا: علينا أن نشجع روح الابتكار في أطفالنا، واستخراج مواهبنا المدفونة، بدلا من مناهج التعليم التي تعلم الأطفال – فقط – كيف يحفظون مع غياب عنصر التربية الذي هو سبيل لتكوين "الروح الابتكارية"، ففي نطاقها تظهر المهارات. ثم – وهو الأهم – علينا أن نرفع قدر علمائنا ومفكرينا، وأن نرصد أعلى الأرصدة من الأموال، وأعلى الأوسمة معنويا لكل مبتكر، حتى ينطلق شبابنا وأمامهم قدوة تتملى ومثل يحتذى.

المصادر والمراجع

١- **بدائع السلك في طبائع الملك**، ابن الأزرق، تحقيق: د. محمد عبد الكريم، ٢٢٣/١، نشر الدار العربية للكتاب بدون.

٢- **تنبيه العقول الإنسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية**، للشيخ/ محمد بخيت المطبعي، مطبعة السعادة بالقاهرة، بدون.

٣- **الحضارات السامية القديمة**، سبتينوموسكاي، ترجمة: د. السيد بكر، ط دار الرقي بيروت، عام ١٩٨٦م، بدون ذكر رقم الطبعة.

٤- **حضارات ورد ذكرها في القران الكريم والسنة النبوية**، د. عبد الحكم الصعيدي، ط الدار العربية للكتاب، ط عام ١٩٩٥م.

٥- **الحضارة**، د. حسين مؤنس، طبع الأنصار بالكويت.

٦- **دراسات عن مقدمة ابن خلدون**، ساطع الحصرى، ط مشتركة بين مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الكتاب العربي ببيروت، ط ٣ عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

٧- **صراع الحضارات في القرن الحادي والعشرين**، ودور الحضارة الإسلامية في هذا الصراع، د. أحمد شلبى، طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ط ٢ عام ١٩٩٧م.

٨- **عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها**، د. محمد السيد الوكيل ط دار الأنصار بالقاهرة، ط ١ عام ١٤٠٢هـ.

٩- **الغرب والعالم:** تاريخ الحضارة من خلال موضوعات، كافين رايلي، ترجمة د. عبد الوهاب محمد المسيري، ود. هدى حجازي، مراجعة د. فؤاد زكريا، ط عام ١٩٨٥م.

١٠- **فضل الإسلام على الحضارة الإنسانية**، للعلامة الهندي: شلبي النعماني، ترجمة د. عبد العزيز عزت، مطابع الأزهر الشريف، ط١ عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

١١- **في تراثنا العربي الإسلامي**، د. توفيق الطويل (عدد/مارس ١٩٨٥م).

١٢- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ابو الحسن الندوى، ص ١١٧، ١١٨، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

١٣- **المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية**، د. سعيد عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢ عام ١٩٨٢م.

١٤- **مروج الذهب، المسعودي**، /٣٤٤، ط بيروت عام ١٩٦٥م.

١٥ **المقدمة، ابن خلدون**، طبع مكتبة السنة المحمدية عام ١٩٩٩م.

١٦- **من فقه عمر**، د. محمود محمد عمارة، ص١١١، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة، بدون.

١٧- **نظرات في الكون والقرآن**، د. عبدالهادى ناصر، المكتبة الأكاديمية.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص باللغة العربية	١٢٣٥
الملخص باللغة الإنجليزية	١٢٣٦
المقدمة	١٢٣٧
المطلب الأول: حضارة الإسلام وحضارات بني الإنسان بين المعالم والذوبان	١٢٤١
المطلب الثاني: استراتيجية العمران في الفكر الإسلامي	١٢٥٠
المطلب الثالث: ابن خلدون أبرز رموز الفكر العمراني في الإسلام	١٢٥٦
أولا: نظريات "ابن خلدو " في الحضارة	١٢٥٧
ثانيا: ابن خلدون وبواكير علم الأنثروبولوجيا	١٢٦٠
المطلب الرابع: نحن والحضارة بين "الفعل" و "الانفعال"	١٢٦٢
النقطة الأولى: وقفة مع العرض السابق لتحديد الموقف	١٢٦٢
النقطة الثانية: أسس التعامل مع الحضارة القائمة: لتحديد	١٢٦٢
الخاتمة	١٢٦٤
المصادر والمراجع	١٢٦٧
فهرس الموضوعات	١٢٦٩